

رحلة أبي الطيب من مصر إلى الكوفة

للأستاذ أحمد رمزي

تتمة البحث

وكنت إذا عمت أرضاً بعيدة سريت فكنت السرو الليل كآمه شعوران قد تملك قلب أبي الطيب في رحلته ، وأعترف بأنى أشاركه فيها : شغفه بالبادية والتغنى بحاسنها ولياليها ، ومقته للظلم والظلمانيان ، فهو لا يذكر أيامه بمصر إلا مقرونة بالألم والحسرة ، ولا يمر بمقبة أو يخرج من أمر مدلم ، إلا عد ذلك نصراً على كافور وظلمه وطمانيه ، ولا يترك مناسبة دون التغنى بالبادية

إنك لا تشمر بشعور أبي الطيب إلا إذا عشت بالبادية ، ورأيت سماء الصحراء القمرية أو لياليها التي تسطع فيها النجوم . إننى أذكر ليلة مقمرة في وسط الصحراء كدت أقرأ فيها على ضوء القمر صفحة من كتاب . ولقد تركت هذه الرحلة برغم مصاعبها أكبر الأثر في نفس أبي الطيب ، حتى أنه بعد مضي أكثر من سنتين تقرأ له في قصيدة وضعا سنة ٣٥٢ هـ أبياتا تشمرنا بحنينه الذى ملأ قلبه وقت السفر إذ قال يذكر مسيره من مصر ويرثى أبا شجاع فاتكا :

حتام نحن نساوى النجم في الظلم وما سراه على ساق ولا قدم ولا يحس بأجفان نحس بها فقد الرقاد غريب بات لم يتم وهو مع ما أوتيه من نصر لتغلبه على الصواب ، يذكر حر الشمس في وسط القيظ ، طول أيام السفر في الفيافي فيقول :

تسود الشمس منا يبيض أوجهاً ولا تسود يبيض العنبر واللحم ثم تجده لا ينسى مدح المطايا التي لولاها لما خرج من مصر بعد ما لقيه من الظلم والعتق فيها :

لأبيض العيس لكفى وقت بها قلبى من الحزن أو جسمى من السقم فكأنه يسير في تفكيره ليستعيد ما مر به من آله وأحزانه وهو الذى سبق له أن قال وهو بالقسطاط :

أقت بأرض مصر فلا ورأى تحب بي الركاب ولا أملى
قليل عاندى سقم فؤادى كثير حاسدى صعب مرامى
عليل الجسم ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام
فلا غرابة إذن أن مطلع جبال حسمى قد غمر قلبه ، وأن رؤيته لتلك الشعاب قد نفخت فيه روحاً جديدة ، بعد ما لقي من نصب ومتاعب في رحلته ؛ وبعد ما تحمل في مصر من ألم نفسانى ومرض أضنى جسمه

إن مناظر الجزيرة وجبال حسمى قد ملأت نفسه حيوراً وجعلت منه إنساناً آخر . . . نرى ذلك في شعره ونحس معه أحاسيس الذى خرج من سجن وانطلق للفناء . . ولا ننس أن بين حسمى ووادى القرى ليلتان ، وبين الأخير والمدينة ست ليال (١)

ولا يمر هذا الشعور دون أن يعتره انفعال آخر هو إحساسه بالنصر والغلبة على كافور وكيده ، وأنه رفض أن يقبل النذل على يديه ، فها هو ذا قد ترك دنيا الظلم والظلام ، وذلك الوسط الذى قال عنه « كأن الحر بينهم يقيم » وقال فيه عن كافور « غراب حوله رخم وبوم » وهناك انطلقت شاعريته في الكوفة فقال في مواجهة الأحداث وليشهد الدنيا على انتصاره

لتعلم مصر ومن بالمرأق ومن بالمواسم أنى الفتى
وأنى وفيت وأنى آيت وأنى عتى على من عتا
وما كل من قال قولاً وفى وما كل من سيم خفناً أبى

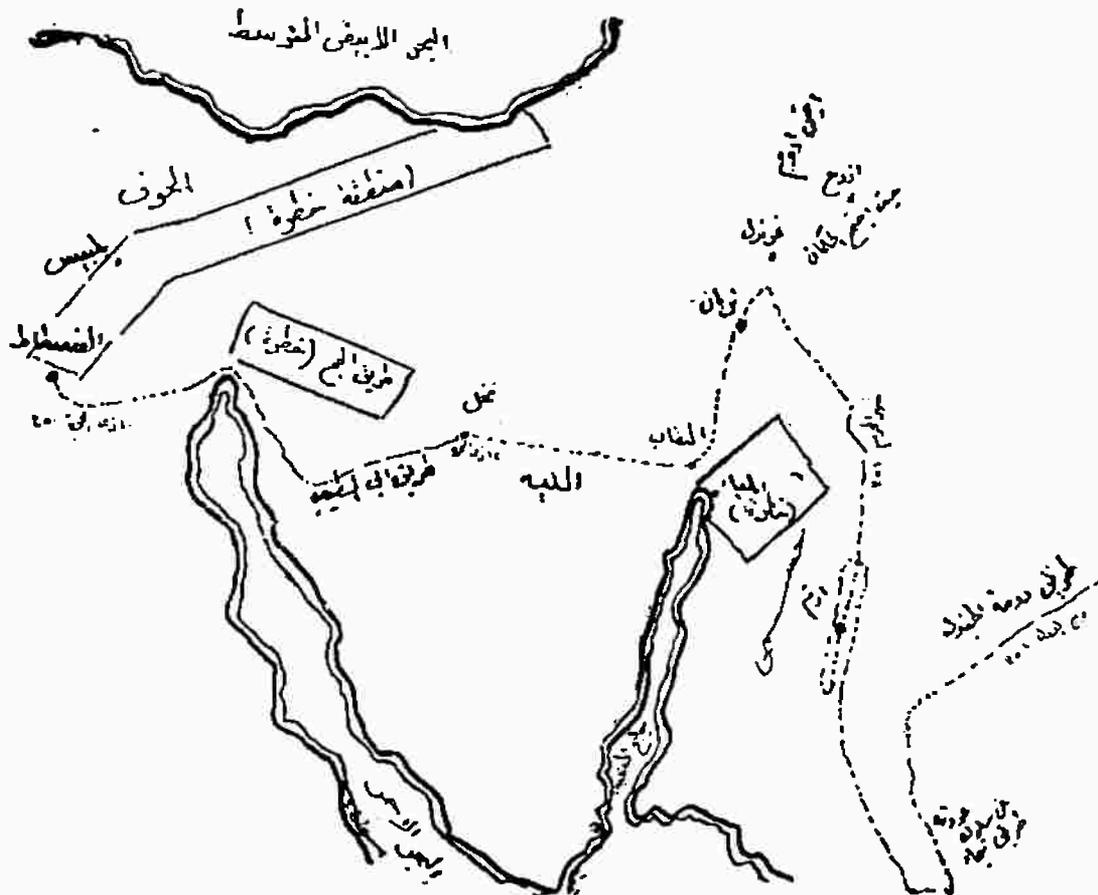
وهو شعر يبلغ فيه النهاية ويتزعم به من كان مثلى قد عانى الشدة وألم الاضطهاد ووقف أمام الظلم . رحم الله أبا الطيب وطيب ثراه ! أنى أعد هذه القصيدة قطعة موسيقية من أروع ما أنشدها الشاعر العظيم . ولقد كنت ضحية للظلم يوماً ، وتتكرو لى أقرب الناس إلى ، وشعرت بشعور أبي الطيب ، وأقت مدة وأنا أترنم بهذه الأبيات ، فأشعر بنفسى وقد قويت ، وأستمد منها شجاعة وصبراً . . . وهكنا يحيا شعر أبي الطيب في نفوس من يفقه أمر التنبي ومن عاش عيشته ومن انكوى بنوع من الظلم يشبه ما أصاب شاعر العرب العظيم

وأقم بالله أنى لآحين الفرص لرؤية حسمى العالمة الأطراف

ما بين مدين وتبوك وامتدت إلى أذرح أو أذرع ، واحتلت عاملة
جبلها المعروف باسمها ، من بحيرة طبرية إلى البحر
وبقيت جبال حسمى بين فزارة وجذام . ولما زلها أبو الطيب
وارتاحت نفسه إليها ، لم تتركه دسائس كافور ، وهو الذي عمل
حسابا له فتحتشى أقرب الطرق إلى حسمى خوفا من كين قد
يرسده له في طريق زوله من رأس الثقب إلى عقبة إيليا ، واضطر
أن يملك طريق الشام أولا ثم بتكني من تران إلى غرندل ثم
جنوبا إلى منازل جبال حسمى

أقول إن صاحب مصر أبي إلا أن ينقص عيش أبي الطيب
وأن يتتبعه إلى الأطراف البعيدة ، فكتب إلى رؤساء العرب
ووعدهم وواعدهم ، وبمضى شهر ظهر لأبي الطيب فسادنية عبيده
وجاءت الحادثة مع وردان بن ربيعة من قبيلة طي ، وهو الذي سمع

والتي قيل أن لا مثيل لها في الدنيا ، هذه الجبال الممتدة على خليج
العقبة الملاء الجوانب ، والتي إذا أراد الناظر أن يتمتع نفسه
بالنظر إليها وإلى قنة منها ، رفع بأبصاره إلى السماء
إنها أوحى لأبي الطيب بالكثير من شعره عن نفسه ،
وأعذب الشعر ما تحدث به الشاعر عن أحاسيسه ، والمتنبى إعصار
هائل من أين أتيت إليه ، فهو عظيم في حجمه وجبروته ، ولكن
هذا الإعصار وسط الأدب العربي ، بلغ القمة وجاوز حدود المنظمة
حينما سجل بشعره آلامه وأحزانه وفرحه وغبطة ويوم انتصاره
وطابت حسمى لأبي الطيب فزلها وأقام بها شهرا . أليست
مواطن الأفاذ من قبائل العرب ، التي لم تعرف الخنوع ولا
الخنوع ، والتي على رغم قربها للملك كافور لم تسمح لنفسها أن تقبل
ظلمه وجبروته وطفانيه



بأن لأبي الطيب سيفا منعبا ، فأخذ يلح في أن يريه إياه ، وأبو
الطيب يحاول التخلص منه ، لأنه سيف يمتزبه ويحرص عليه ،
فجعل الطائي يمتثال على السيد الذين في خدمة أبي الطيب ويحرصهم
عليه طمعا في الحصول على السيف .

جاء في كتاب الهمداني^(٢) أن إرم وحسمى والياض هي مساكن
من تشام من العرب الأصحاح ، وقد سكنت لهم المنازل بين الرملة
ومصر (الجفار) وطرق جبال الشراة ، أما جذام فكانت تسكن

إذا فتحت الخرائط وجدت منطقة الجوف تتوسط الصحراء، وهي التي قال عنها صاحب جزيرة العرب، كانت تسمى قديماً دومة الجندل^(٣) والجوف هي البلدة الرئيسية تقع وسط منطقة زراعية كبيرة على رأس وادي السرحان والواحة واقعة في منخفض نحو ٥٠٠ قدم تحت سطح الصحراء المحيطة بها^(٤)

وفي هذا المنخفض واحات صغيرة مثل سكاكة وقارة والطور وجاهة، وسكاكة هي أكبرها وتكثر فيها مزارع التخيل ولأهمية موقعها طلب مندوب الملكة الأردنية في مؤتمر الكويت أن تكون حدود نجد كما كانت عام ١٩١٩ أي طلب إخلاء الجوف وسكاكة ووادي السرحان من قوات الملكة السعودية^(٥) فطلب مندوب نجد استفتاء أهالي الجوف فقشل المؤتمر^(٦)

وقد برز اسم دومة الجندل في تاريخ الإمام على كرم الله وجهه ومعاوية، فقد ذكر السعدي^(٧) «وفي سنة ٣٨ كان التقاء الحكيم بدومة الجندل، وقيل بغيرها على ما قدمنا وصف التنازع في ذلك» وذكر اسم كتاب له فيه تفاصيل النزاع ضامن ما ضاع من مؤلفاته

ويقول الأستاذ الحضري في تاريخ الأمم الإسلامية^(٨) «فتوافوا (أي الحكيم ومن معها) بدومة الجندل بأذخ فيكون قد أقر بأن الاجتماع في دومة الجندل التي هي بأرض الشراة. وقد نقل هذا عن ابن خلدون^(٩) الذي قال : وبث معاوية عمرو بن العاص في أربعائة من أهل الشام والتقوا بأذخ من دومة الجندل» صفحة ٤٤١

(٣) جزيرة العرب تأليف حافظ وهبة صفحة ٦٧
(٤) وموقع الجوف مهم جداً لأنه يقع على الطريق المباشر ما بين سوريا ووسط بلاد العرب وهي منفصلة أو يقع في المنتصف ، ما بين الفرات وطريق الحجاز المهدى بين جبل شمر وجبل الدوز وعلى بعد ٣٠٠ ميل من كل هذه الواحات ، وهي الواحة الوحيدة ما بين العقبة وبتداد أو المدينة والبصرة

(٥) صفحة ٢٥٧ جزيرة العرب

(٦) صفحة ٢٤٨ جزيرة العرب

(٧) جزء ٢ صفحة ٢٧٥

(٨) جزء ٤ صفحة ٤٣٢

(٩) ٢ ج ٢ صفحات ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٨ ، ١٥٦ ، ٢٠٠ ، ٢١١ ،

٦١٦ ، ٢٨٦ ، ٤٢٠ ، ٤٤١

وهنا اكتشف أبو الطيب أن أبا المسك صاحب مصر قد كاتب العرب الذين حوله ، ولم يبق هناك مفر من الرحيل ، فأرسل من يشق به إلى بني فزارة وبني مازن ، وإلى شيخ من ولد هرم بن قطية . لما أنه الخبير بمبواه النزول لديه شد ليلا على الإبل وجنب الحيل ، وسار تحت كنف الليل على طريقته لما غادر القسطنطين والقوم لا يعلمون برحيله ، وكان يقصد تضليلهم إذا حاولوا القبض عليه ، كما ضلل من قبل جماعة كافور . ويظهر من تصرفاته أنه كان على علم وإلزام بطرق البادية ، ومسالك البلاد وأسرارها ، بدليل أنه اتخذ السير في طريق البياض وسار فيه ليلا حتى رأس الصوان، وهذا الدرب خطير يحتاج فيه الراحل إلى الخفارة لتمنر الأمان فيه وهو الطريق الذي يسلكه من يرحل من تيماء ووجهته الكوفة فيمير يرة فيما يلي البياض ثم يحترق ديار ذيبيان ، فنازل كلب في صحراء السهولة ثم الدهناء ، فإذا مر منها واجهه نخل الفرات . وما وصل أبو الطيب إلى رأس الصوان حتى انكفأ عائداً إلى الشمال مرة أخرى ، محترسا من أن يقع على كمين إذا سار في الطريق الأول

وفي صفحة ٤٩٥ من الديوان « وسار أبو الطيب حتى نظر آثار الخيل ولم يجد مع فليته خبراً من العرب التي طلبها فقال له اخرق أو احرف بنا على بركة الله إلى دومة الجندل؛ وذلك لأنه أشفق أن تكون عليه عيون بحسبى قد علمت أنه يريد البياض ، فصار حتى انحدر إلى الكفاف فورد البويرة بعد ثلاث ليال ذكر ياقوت أن البويرة موضع بين وادي القرى وبين بسطة الواقعة في طريق الكوفة

ومن ذلك يتضح أن أبا الطيب أقر في نفسه طريق السفر فجعل : أولاً وجهته دومة الجندل ثانياً نحاشي العودة إلى جبال حسمى فكان انحداره للبياض كان تمويهاً لأنه اتخذ كمعادته طريقاً آخر هو طريق الكفاف ثم البويرة

والخرائط لا تسعف هنا لأن الناطق الواقعة في أراضي الملكة السعودية لم تسح بعد الساحة التفصيلية، فأبدأ بالكلام على هذه المواقع جاعلاً أول الكلام على دومة الجندل ثم بقية الأماكن إلى الكوفة

٤٥١ أن دومة التي بها أذرح معرفة عن أدوم، وأنها البلاد التي يسكنها نسل دومة وهو أدوم بن إسماعيل أو سادس أولاده (نك : ٢٥ : ١٤) وأنهم سكنوا في صحراء سوريا على بعد ١٥٠ أو ٢٠٠ ميل من دمشق حيث توجد قطعة أرض تعرف باسم دومة الحجرية أو دومة السورية

وفي كتاب الإمامة والسياسة ج ١ صفحة ١٣٦ ما يشير إلى كتاب بين علي ومعاوية اتفقا فيه على أن يرجع أهل المراق إلى المراق وأهل الشام إلى الشام ويكون الاجتماع إلى دومة الجندل (وأظن أنهما يقصدان دومة الجندل بالجوف) فإن رضى أن يجتمعا بنيرها فلها ذلك... ثم ذكر في صفحة ١٣٨ أن أباموس وعمرألا اجتمعا بدومة الجندل كان عقد التحكيم هدنة من رمضان إلى رمضان

وإذا رجعنا إلى اسم أدوم وجدنا أن معناه في قاموس الكتاب المقدس أجز وهو لقب عيسو بن إسحق أخذ بلون القدس يوم باع بكرورته إلى أخيه يعقوب وأخذ الأرض الواقعة جنوبي « حبرون » مدينة الخليل إلى جنوب البحر الميت ثم تخوم أرض موآب ثم اتسعت البقعة فشملت الأراضي الواقعة بين بيرة « سين » وغربها إلى بلاد العرب الواقعة شرقها أي شملت منطقة أذرح وما حولها - التي اشتهرت بجودة هوائها ، وخصب أراضيها ومناعة حصونها. أما تسميتها بأدوم فأخذنا من عيسو الملقب بأدوم (نك : ٣٦ : ٤٣) والمظنون أن نسله استوطن هناك فأصبح هذا القسم من جنوبي البحر الميت يشمل كل تخوم كنعان الجنوبية من البحر الميت إلى الخليج الشرق للبحر الأحمر ومن ضمنها جبل سمر وكانت صالح عاصمة القسم الجنوبي وفيها استوطن تيمان بن عيسو (نك : ٣٦ : ١١) فتسمى الجزء الجنوبي تيماء باسمه وكان للأدوميين ملوك يحكمون باسمهم

ولما جاء حكم الروم أنشأوا في تخوم العقبة باباً كبيراً ووضعوا عليه شحنة لجبي الضرائب على القوافل القادمة من الجنوب... وفي الاصطخري وابن حوقل^(١١) تمتد جبال أدوم من الشراة إلى أيلة أي العقبة كما جاء في كتاب فاسطين تحت حكم الملين لمؤلفه جوي لوسترايخ أن أدوم في مادة الشراة

« وكتب الكتاب لثلاثة عشرة خلت من صفر سنة ٣٧ واتفقوا على أن يوافق على موضع الحكيم بدومة الجندل وبأذرح في شهر رمضان » ٤٤٠

وجاء ذكر دومة الجندل في صفحة ٢١٦ « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في جمادى الأولى من السنة الخامسة لسته أشهر من فتح بني قريظة ، وذلك إثر رجوعه من دومة الجندل فسلك على طريق الشام أولاً ثم أخذ ذات اليسار إلى صخيرات اليمام » ولذلك اختلف الناس في تحقيق موضع اجتماع الحكيم هل هو في دومة الجندل بالصحراء أم في دومة الجندل بأراضي المملكة الأردنية ؟ أي في بلدة أذرح الواقعة في نطاق دومة الجندل والتي كان يطلق عليها الصخرية

إنني أميل إلى الرأي الأخير وإن كنت أدعو أحد المهتمين بتحقيق الدراسات الإسلامية أن يضع بحثاً عنها

وقد جاء في كتاب تاريخ الإسلام السياسي ما يأتي « اجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري بدومة الجندل وهي بضم الدال وفتحها وتبعد عن دمشق بست مراحل وتقع على الطريق بين دمشق إلى المدينة^(١٠) »

وكان عقد التحكيم مدته من رمضان إلى رمضان وكتب في يوم الأربعاء ١٣ صفر سنة ٣٧ وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجند الموثيق واتفقا على تأجيل القضاء إلى رمضان وإن أجا أن يؤخرا ذلك أخراه على أن يوافق علي ومعاوية موضع الحكيم بدومة الجندل في رمضان فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا في بلدة أذرح البينة على الخريطة شمال غرندل وريان

وبعث علي للبعاد بأربعمائة رجل ولم يحضر علي، وبعث معاوية بأربعمائة رجل ثم جاء معاوية واجتمعوا في أذرح والتقى الحكمان كل هذا يقتضي بأن الاختيار وقع أولاً على دومة الجندل التي بالجوف لتوسطها بين الطرفين ولكي يحضر الشخصان أمام الحكيم ؛ ولكن معاوية المريص على ملكه وحياته اختار الشق الثاني وجعل بلدة أذرح المكان المختار وقد يكون احتج بأنها قائمة بأرض دومة الجندل لأن هذه المنطقة كانت تسمى بأرض أدوم أو دومة من القوم... فقد جاء في قاموس الكتاب المقدس ص

أما تحقيق أدوم أو دومة الجندل لدى العرب فقد جاء في صفحة ١٠٦ جزء ٤ من معجم ياقوت كما يأتي : بضم أوله أو فتحه ابن دريد : أنكر الفتح وعده من أغلاط المحدثين حديث الواقدي : جاء فيه دوما الجندل ابن الفقيه : عدها من أعمال المدينة ... وقال سميت بدوم بن إسماعيل بن إبراهيم

الزجاجي : دومان بن إسماعيل وقيل دوما

ابن الكلبي : دوما بن إسماعيل، ولما كثرت ولد إسماعيل بنهماة خرج دوما حتى نزل دومة وبنى به حصنا فقيل دوما ونسب الحصن إليه وهي على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ... وقال أبو سعيد : دومة الجندل في غائط في الأرض خمسة فراسخ وفيها عين يسقى ما به من التخل والزرع وحصنها مارد، وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبنى بالجندل « ولا يبعد أن وصفه ينطبق على دومة الجندل بالجوف والحصن على ما بناه الأكيدر وهو من فتح خالد بن الوليد . ثم يؤكد أبو عبيد الكوفي أن دومة الجندل قرب جبل طى ويقصد بذلك واحة الجوف لأنه يذكر بلدة دومة وسكاكة وذو القارة^(١٢) أما دومة ففيها سور يتحصن به وفي داخل السور حصن منيع يقال له مارد وهو حصن أكيدر

ونعود إلى أرض أدوم أو دومة الجندل الصخرية فنقول إن هذه البقعة كانت عامرة في العصور السابقة وفي عهد الروم أنشئت بها كما قلنا أسقفية في « غرنبل » تحريف « أرندل » التي بقيت على الطريقت الروماني من العقبة إلى بصرى ، وكان ير بأرض الشوبك وعليه حصن الكرك المشهور في الحروب الصليبية، وكان عامرة في عهدها الإسلامية بدليل سكنى الخلائف من قريش وبنى هاشم ، وأن الدعوة الباسية قامت من بلدة الحيمة حين مات بها إبراهيم الإمام

وبعد هذا التحقيق والبحث كنت أقلب الجزء الأول من العقد الفريد تحقيق العلامة الدكتور أحمد أمين فوقع نظري في الصفحة ٢٦٤ سطر ١٣

« وأوصل أبو دلالة إلى المباس بن المنصور رقعة فيها

(١٢) أسبغت القارة في كتاب الشيخ حافظ ومة

هذه الآيات

قف بالليار وأى الدهر لم تقف على مناظر بين الظهر والتجف
فإذا الحاشية (٤) تقول

(التجف بالتحريك موضع يظهر الكوفة ، وهو دومة الجندل بسينها، وبالقرب منها قبر أمير المؤمنين على بن أبي طالب) ولا شك في أن واضع الحاشية كثيره من الأدباء أغفل تحقيق الأماكن الجغرافية لعدم أهميتها، والحقيقة أن بالكوفة مكانا يدعى « دومة » والتجف محلة منها ويقال إنها سميت بذلك لأن عمر بن الخطاب لما أجلى الأكيدر صاحب دومة الجندل المشهورة في الجوف قدم الخيرة ثم بنى بها منزلا سماه دومة على اسم حصنه الذي نزع منه (راجع كتاب تاريخ الكوفة تأليف المؤرخ السيد حسين بن السيد أحمد البراق طبع أنجف صفحة ١٤٨ سطر ٢

ولا يصح أن يفهم القارى خطأ بأن موضع دومة الجندل التي مر ذكرها واختلاف الرواة بشأن الحكين كان موضعاً بالقرب بالتجف حيث يرقد الإمام على رضى الله عنه وبين التجف ودومة الجندل بالجوف مئات الأميال وبينها وبين أرض أدوم بالشرارة مئات أخرى

أحمد رمزي

المدير العام لصحيفة الاقتصاد الدول

تاريخ الأدب العربي

للأستاذ أحمد حسن الزيات

يؤرخ الأدب العربي من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوى ، واستيعاب موجز ، وتحليل مفصل ، واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربي والآداب الأخرى

طبع في ٥٢٥ صفحة
وتمه آر بون فرشاً هذا أجره البريد